نحو مقاربة فهمية تأويلية للجنوح

أيوب أيت ادرى

مختبر السياسات التربوية والديناميات الاجتماعية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

كلية علوم التربية، جامعة محمد الخامس، الرباط

المغرب

ملخص:

هل تحتاج ظاهرة جنوح الأحداث إلى مقاربة كمية أم مقاربة كيفية؟ وهل ينبغي إخضاعها للتفسير السببي، أم فهمها من الداخل كتجربة وجودية معيشة، بالإنصات إلى وجهة نظر الحدث كفاعل اجتماعي؟ أليس العالم الاجتماعي تشكيلا للفاعلين أكثر منه للقوانين الموضوعية؟ نتعامل في مؤسسات حماية الطفولة مع مراهقين يعيشون وضعية هشاشة في الرباط الاجتماعي، تتظهر في اختيار علاقات بديلة عن العلاقات الأولية والاتفاقية، وفي ميلهم إلى الانعزال وتبني سلوكات مضادة للمجتمع، بحثا عن الهوية والتماسا للمعنى. وعليه، يشكل البراديغم الفهمي التأويلي مدخلا إبستيميا نحو إعادة بناء موضوع الجنوح بالمغرب، وسبيلا لاستقراء ما يعتور هذه الهوية من حالات النقص والتوتر والهدر الوجودي، عبر استثمار قوة الحكي والسير البيوغرافية للمراهقين الجانحين. وهذا ما ساعدنا على استجلاء أبعاد التجربة المعيشة لهؤلاء واستراتيجياتهم الهوياتية التي تعبر عن رغبتهم الجامحة في الخروج من دوائر القهر والإذلال إلى دوائر المرئية الاجتماعية والاعتراف.

كلمات مفتاحية: الجنوح – التجربة الاجتماعية- المقاربة الفهمية التأويلية- حكايا الحياة.

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أيت ادرى، أيوب. (2024، نونبر). نحو مقاربة فهمية تأويلية للجنوح. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 8، السنة الأولى، ص 155-178.

Abstract:

Should we deal with juvenile delinquency from a qualitative or quantitative approach? Should we tackle the phenomenon from casual interpretation, an inner understanding as an existential experience or through the personal point of view of the juvenile as an actor? To what extent does the external world portray actors rather than substantive laws? We, in child protection centers, deal with teenagers in vulnerable situations of the social relations, manifesting through the choice of alternative relations instead of the primitive and agreed-upon ones. Therefore, these teenagers opt for anti-society behaviors in their research for an identity and a meaning for their lives. Hence, the comprehensive interpretative paradigm represents an epistemological introduction to the reconstruction of the issue of delinquency in Morocco, and an attempt to reveal the reasons hindering such identity including Deficiency, tension and existential loss. This is possible through narration and life stories of the delinquent teenagers. To sum up, this was our lead to explore the experience of these young people, their strategies and identities, which is an evidence of their desire to get out of Circles of oppression and humiliation and overtake social and recognition circles.

Keywords : Delinquency- Social experience- comprehensive interpretive approach- Life story.

مقدمة

لا يمكن فهم مشكلة الجنوح لدى المراهقين بمعزل عن سياق التحولات البنيوية الجارفة التي يعرفها المجتمع المغربي خلال السنوات الأخيرة. ففي الحقل الاقتصادي، تعاظمت القيم الرأسمالية المصحوبة بالربح السريع والإعلاء من قيمة الأشياء، حيث صار الرأسمال المادي هو المعيار الأساسي لقيمة الشخص ومكانته في المجتمع مقارنة مع القيم التقليدية المرتبطة بالشرف. وفي الحقل السوسيوثقافي انتقل المجتمع من نظام التضامن الميكانيكي، وما يرتبط به من قيم القرابة والعشيرة، إلى قيم الاستقلالية والحرية النسبية للفرد على مستوى الاختيارات والتطلعات (Rachik, 2004).

في ضوء هذا الانتقال القيمي، صار النزوع إلى الفردية وتحقيق الذات غاية في ذاته وبأي طريقة ممكنة. وصار التوق إلى امتلاك الأشياء والتميز هو المحرك الأساسي لسلوكات وتصرفات الشباب والمراهقين(CERED, 2005) ، حيث نلاحظ رغبتهم الجامحة في التمرد على التقاليد عبر اللغة والجسد والموسيقى. تلقي هذه التحولات بالمراهق في اقتصاد جديد للرغبات والحاجات، مرتبط بتشجيع الاستهلاك وتجديد الذوق كل يوم، فالزمن عنده هو زمن " الزابينغ" الذي يحول الاهتمام بالذات إلى حياة طقوسية ذات أقانيم ورموز خاصة(Le Breton, 2007) .

وإذا كانت هذه التحولات تفرض على المراهق مراكمة رساميل مادية ورمزية هامة للإحساس بالانتماء، فإن هذا الطموح يصيبه بالإحباط عندما يعيش وضعية الهشاشة واللاتكافؤ بين الموارد والانتظارات. فواقع الهشاشة الذي يعيشه يحوله إلى كائن مقهور. ويتمظهر ذلك في توتراته الهوياتية وتمرده على مؤسسات التنشئة الاجتماعية والبحث عن روابط اجتماعية بديلة، أي عن هوية جديدة تمنح لوجوده معنى (Malewska-Peyre, 1998).

فالمراهق الجانح ليس مجرد ذات في وضعية هشاشة، ولكنه فاعل اجتماعي منتج لثقافة اجتماعية ولمنطقيات فعل خاصة(Brunelle & Cousineau, 2005) يقوم عبرها بمفاوضة هويته الذاتية داخل الفضاء العمومي (Carra, 2001)، ويبلور استراتيجيات هوياتية تعويضية (Camilleri, 1998) كفيلة بتدبير وضعيات الاستبعاد والإحساس بالدونية، ونزوعا نحو الانعتاق من وضعيات القلق واللايقين.

تأخذ الاستراتيجيات الهوياتية لدى المراهق الذي يتمرد على الشخصية القاعدية للمجتمع طابع العنف والعدوان، ذلك أن مجاله يتسع ليصير المجال العمومي حقلا للتجارب بعيدا عن

عيون الأسرة، لتجريب الخطر وبناء علاقات جديدة (Le Breton, 2013). لذلك فالمعنى الذي يعطيه المراهق لتصرفاته الانحرافية يصعب فهمه انطلاقا من الصور النمطية والأحكام المسبقة السائدة حول صورة المراهق في المجتمع، ويصعب فهمه كذلك انطلاقا من المقاربة القانونية الردعية، وإنما يتطلب فهمه كتجربة وجودية من الداخل، عبر تأويل الدلالات والمقاصد التي يمنحها لمنطق فعله الاجتماعي.

إنّ انطلاقنا من وجهات نظر المراهقين الجانحين في إعادة بناء موضوع الجنوح بالمغرب، نابع من قناعتنا أن مواقفهم واتجاهاتهم هي الطريق الموضوعية لفهم أشكال القهر واللّامساواة التي يعانونها، وسيرورة تشكل هويتهم الاجتماعية. وهذا ما يجعل انغراسنا الإبستيمي يذهب إلى ماكس فيبر وألفرد شوتز، حيث يدرس علم الاجتماع التأويلي الفرد وفعله الاجتماعي، باعتباره الوحدة الأساس لهذا العلم، ويحدّد الفهم بوصفه منهجا عامّا لتحليل الظّواهر الاجتماعية، انطلاقا من استكشاف وتأويل المعنى المؤطّر للفعل الاجتماعي كمعيش ذاتي (Tellier, 2003).

يروم هذا النص فهم تجربة الجنوح لدى المراهق وعلاقتها بالهوية، استنادا إلى تجربة بحث ميداني أنجزناه، ما بين سنة 2016-2018، مع خمسة أحداث مودعين بمركز حماية الطفولة " x "[1]. حيث شكل الانطلاق من التجربة المعيشة لهؤلاء المراهقين رهانا إبستيميا هاما في إعادة بناء هذه المشكلة الاجتماعية، وفي إعادة الاعتبار لذاتية المراهق الجانح كمدخل نظري ومنهجي مفيد في فهم البناء الاجتماعي لظاهرة الجنوح. لهذا سنعرض، في البدء، للمقتربات الإبستيمولوجية والنظرية للبحث، مرورا بإبراز دور المقاربة البيوغرافية في فهم الجنوح كتجربة اجتماعية، وصولا إلى عرض أهم النتائج المستخلصة من البحث.

أولا: المنطلقات الإبيستمولوجية والنظرية للبحث

يلاحظ من خلال مراجعة أهم الأدبيات حول الجنوح لدى المراهقين بالمغرب، أن أغلب الدراسات(EL Khazraji, 2006; Belarbi, 2008; FMRD, 2011 ; Hamdaoui, 2013) نظرت إلى هذه المشكلة الاجتماعية في أبعادها المتصلة باللا أمن وتلاشي ميكانيزمات الضبط الاجتماعي، أو قاربتها كاختلال نفسي في شخصية الفرد. لقد ركزت هذه الدراسات اهتمامها على الجوانب الكمية

[1] مراكز حماية الطفولة هي فضاءات سوسيوتربوية تتولى مهمة إعادة تربية الأحداث الجانحين المحالين عليها من طرف السلطات القضائية طبقا لمقتضيات قانون المسطرة الجنائية. تستقبل هذه المؤسسات الأحداث الذين اتخذت في حقهم تدابير قضائية طبقا لمقتضيات قانون المسطرة الجنائية، والذين تتراوح أعمارهم ما بين 12-18 سنة. ويناط بها تقديم خدمات تربوية كفيلة بإصلاحهم وتأهيلهم للاندماج في المجتمع.

والإحصائية للظاهرة، دون إيلاء أهمية مركزية لأبعادها الكيفية. لم تستطع هذه الأبحاث استكشاف واستقراء معاني ودلالات تجربة الجنوح من منظور الفاعلين، وانطلاقا من مواقفهم إزاء سلوكاتهم المنحرفة، وما يرتبط بها من نزوع نحو انتزاع الاعتراف الاجتماعي. كما تغافلت الأبعاد الذاتية، والرمزية والأنثربولوجية للظاهرة، ولم تستطع النفاذ إلى تمثلات الشاب الجانح لذاته، وإلى رؤيته للعالم ومنظوره لنشاطاته الجانحة.

ومن هذه الزاوية، يشكل اختيارنا للبراديغم الفهمي التأويلي مدخلا لمجاوزة حدود هذه الدراسات، كما أنه نابع من وعينا بخصوصية موضوع دراستنا، وانغراسه في أبعاد وجودية ورمزية، تستعصي المقولات الرّياضية والإحصائية المجرّدة على استكشافها والنّفاذ إلى جوانيتها. فالوقائع الاجتماعية ليست أشياء؛ لذلك ما فتئ بيتر برغر وتوماس لوكمان يؤكدان أن الأساس الحقيقي للعلوم الاجتماعية يكمن في عالم الحياة اليومية، وأن المنهج الفينومينولوجي هو القادر على فهم واكتشاف الدعائم الذاتية للحياة، وتحرير السوسيولوجيا من حالة الاغتراب التي تعانيها(Berger, Luckmann, 2018). ومن تم فأهمية هذا المنهج تكمن في قدرته على التحليل الوصفي لما يقع في العالم المعيش، انطلاقا من مبدأ التفهم وتأويل التعبيرات؛ من حيث إن الفعل الاجتماعي لا نستطيع فهمه كواقعة خارجية، نظرا لمدلوله الباطني الذي يستوجب حشد الكفايات الحدسية الذاتية للباحث، حتى يتمكن من استيعاب وتمثل دلالات الفعل الاجتماعي والخاصية الجوانية للظواهر الاجتماعية التي يتم فهمها من قبل الفاعل الاجتماعي نفسه.

من هنا تبرز أهمية وضع الإنسان وذاتيته في مركز التأمل السوسيولوجي. ففي محاضرته الشهيرة " أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا المتعالية"، يترك لنا إدموند هوسرل دفاعا شغوفا ومؤثرا عن الذاتية (Husserl, 1976). إذ ذهب إلى أن المعرفة العلمية أصبحت منفصلة عن خبرة الحياة اليومية ونشاطها، وهي المكان الذي نبعت منه تلك المعرفة أصلا، وعلى هذا، رأى أن مهمة الفلسفة الفينومينولوجية هي إعادة تجسير هذه الفجوة. وهذا ما يجعلنا نتموقع إبستيميا مع البراديغمات الفهمية، حيث يدرس علم الاجتماع التأويلي الفرد وفعله باعتباره الوحدة الأساسية لهذا العلم (Weber, 1965).

انطلاقا من هذا المنظور إذن، شكلت التفاعلية الرمزية اتجاها نظريا متميزا في سوسيولوجية الجنوح، ولقد حدد هذا الاتجاه برنامجا خاصا لتحليل الظواهر الاجتماعية، يمر عبر ملاحظة السلوكات في سياقاتها الطبيعية استنادا إلى مقاربة كيفية تتجاوز المنظور الكمي الذي

يحاكي فيه الباحث عمل عالم الطبيعة (Le Breton, 2012). ذلك أن استقراء ظاهرة ما لا يتم بشكل ميكانيكي، بل من خلال الفهم التفسيري للمعنى الذي يشكله الفاعلون، عبر تفاعلاتهم.

وجه رواد التفاعلية الرمزية النقد إلى السوسيولوجيين الذين يرون في الانحراف إما تجليا مرضيا، وإما أحد أعراض الاختلال أو التفكك الاجتماعيين (نقد الاتجاه الوظيفي بالأساس). ويتعلق الأمر بالقطع مع الأفكار المسبقة وتحديد أصيل لمفهوم الجنوح. ذلك أن كل الجماعات الاجتماعية تشكل معايير، وتعمل جاهدة لأجل الخضوع إليها، على الأقل في بعض اللحظات وبعض الظروف. تحدد هذه المعايير وضعيات وأنماط سلوكية ملائمة لها : بعض الأفعال تسطر كخير، وأخرى ممنوعة من حيث هي شر. وحين يفترض أن فردا ما عمل على انتهاك معيار معمول به، فإنه ينظر إليه كفرد غريب، لا يمكن الثقة به. لكن الفرد الذي تم وصمه هكذا كغريب، يمكنه أن يرى الأشياء بمنظور آخر، إذ يمكنه ألا يحترم المعيار الذي نعتمده للحكم عليه أو ينفي مبدأي الكفاءة والشرعية عن هؤلاء الذين يحكمون عليه.

إن الجنوح، حسب هاوارد بيكر، ليس معطى جوهرانيا عند الفرد الموسوم بالجنوح، بقدر ما هو حكم حول أفعال الفرد. فالانحراف ليس صفة للفعل المقترف من طرف شخص ما، وإنما هو نتيجة لتطبيق الآخرين لمعايير وجزاءات ضد منتهكيها. بمعنى أن المنحرف هو ذلك الشخص الذي ألصقت به تلك السمة بنجاح، وإن السلوك المنحرف هو ذلك الذي تعمل الجماعة على ربطه بذلك الوصم(Becker, 1985) .

إن الجنوح تجربة اجتماعية مبناة داخل نظام التفاعل الاجتماعي. كما أن اللغة السببية كما تبنتها بعض النظريات في تفسير الظواهر الانحرافية، غير ملائمة تماما لوصف مجموعة من السيرورات المترابطة والمركبة. لهذا فإن تغييب البعد البنائي للظاهرة قد يسقط الباحث السوسيولوجي في تبني خطابات قسرية ومماثلات اجتماعية جاهزة تلغي التجربة الذاتية للشباب الجانحين، في إطار مقاربة وضعية كمية لظاهرة جنوح الأحداث، تسقط في أنموذج العلوم الطبيعية وحتمية الأنساق والبنيات المجتمعية، تعيد إنتاج المجتمعي وعنفه الرمزي نحو الفئات الهشة، بل وقد تسقط في خطاب إيديولوجي أو أخلاقي وعظي يدعو إلى إحلال التوازن الوظيفي داخل المجتمع والرأفة والرحمة بهؤلاء الجانحين.

وعليه، يرى بيكر أن الباحث عليه أن يدرس التفاصيل الدقيقة للسيرورة التي ترتبط خلالها حالات بتصنيفات معينة مثل " جانح"، " منحرف"، " مريض عقلي". وأن يعطي كذلك اهتماما

خاصا للبعد الزماني للظواهر، والتي ينبغي أن ينظر لها دائما كمسارات وسيرورات لا كوقائع سكونية.

وهذا ما الانطلاق من وجهات نظر المراهقين الجانحين، ورؤيتهم للعالم. كما يقتضي منّا استقراء المنظومة الذّاتية التي يتحرّكون بها وفي إطارها، والتّحليل الوصفي لخبراتهم ووضعياتهم المعيشة في أثناء تفاعلاتهم داخل النظام الاجتماعي، وامتحاناته السوسيونفسية اليومية. ترتبط هنا دلالات تجربة الجنوح بمفهوم " التجربة الاجتماعية" كما صاغه فرونسوا ديبيt في مؤلفه سوسيولوجية التجربة، حيث نفترض أنه تمة صراع بين المراهق الجانح والمجتمع يفصح عن جدلية مفهومية نصوغها كالتالي: يسعى الاجتماعي le social إلى سحق الفرد وإخضاعه مطلقا لبنياته، ومن جهة أخرى تنتج الذات استراتيجيات مستمدة من المخزون المعرفي الاجتماعي المكتسب في تلك البنيات ذاتها، حيث تتقاطع مجموعة من الإكراهات والوسائل والإمكانات والشفرات والرموز، فتقود الذات إلى تفاوض مستمر مع البنيات. ومنه فتجربة الجنوح تشير إلى تجربة انتقالية تضع المراهق أمام امتحان اجتماعي صعب في تدبيره لعلاقته بذاته وعلاقته بالغير، حيث يجرب إمكاناته كلها في إعادة بنائه لواقعه الاجتماعي وفق وعي قصدي واستراتيجيات تفاوضية دائمة(Dubet, 1994) .

ثانيا: المنهج البيوغرافي وأهمية حكايا الحياة كأداة في البحث

لما عزمنا على دراسة تجربة الجنوح لدى المراهق، فقد انتصرنا إلى مقاربة منهجية فينومينولوجية، وعيا منا بنجاعة البراديغم الفهمي التأويلي في النفاذ إلى التجربة الاجتماعية للفاعل وتاريخانيتها. ومتى كانت هذه التجربة منغرسة في سياق سوسيوثقافي خاص، وفي مجال سيكوسوسيولوجي ورمزي معين، فإن الأصالة الإبستيمولوجية لمقاربتنا المنهجية الكيفية تكمن في اعتبارها الظاهرة الاجتماعية كسيرورات بنائية حاملة لمعنى، تفرض على الباحث امتلاك الحدس والخيال اللازمين لإجراء وصف فينومينولوجي عميق لأبعادها ودلالاتها وقصديتها. ولعل مرونة المنهج البيوغرافي وما يتيحه من رخاوة في بناء الموضوع السوسيولوجي، هي ما سيساعدنا على استجلاء أبعاد التجربة المعيشة للمراهق الجانح واستراتيجياته الهوياتية التي تشرط قراءته النظرية للواقع، وكيف يعيش جدليته كبناء اجتماعي ذاتي وموضوعي في نفس الوقت. فإذا كنا نريد دراسة الإنسان، فإن أفضل الوسائل هي جعل الإنسان يتكلم، والحقيقة تتكلم، والرمز يتكلم، واللغة تتكلم. وعليه، فإن مناهج البحث الكيفي هي تلك التي يتحدث ويشارك فيها المبحوثون مع الباحثين في البحث عن الحقيقة (عرابي، 2007).

فحين اخترنا مفهوم " التجربة الاجتماعية" كمدخل لدراسة ظاهرة الجنوح لدى المراهق، ومن خلال معايشتنا للجانحين في أثناء بحثنا الميداني، تبدى لنا أن النفاذ إلى عالم حياتهم لن يتم دون اعتبار فعلهم كصراع في سبيل منح معنى لعالمهم الاجتماعي، وأن نجاحنا في استكشاف أبعاد هذا المعنى مرتبط بالعودة إلى ذاتية الجانح، والاقتراب من وضعه البشري لفهم مقاصد ودلالات تصرفاته. ذلك أن المراهق المغربي يعيش في مجتمع مأزوم، ويمكن للمناهج السوسيولوجية الباردة أن تزيد في تأزيم وضعيته حينما ينظر إليه كمجرد موضوع للدراسة بدل فهمه وتفهمه واعتباره ذاتا بانية للمعنى، وإعطائه حق الكلام والانخراط في دوائر المجال العمومي.

وفق هذا المنظور، فإن اختيارنا لحكايا الحياة كأداة للبحث يأخذ مشروعيته الإبستيمولوجية والميتودولوجية من الهدف العام للبحث الذي يرمي إلى الفهم التأويلي للتجربة المعيشة للمراهق وعلاقتها بالهوية. فالنفاذ إلى عالم حياته وإحساساته وتمثلاته لذاته وللغير وللعالم، يقتضي أن ننصت لذات تحكي عن انتظاراتها وأحلامها وتوثراتها الوجودية، واستراتيجياتها الهوياتية، وأزماتها البيوغرافية، وإخفاقاتها ونجاحاتها، من حيث أن الهوية لا يمكن أن تكون سوى سردية على حد تعبير ريكور(Ricoeur, 1985) . هنا تبرز أهمية حكايا الحياة في الانطلاق من الخطابات السردية للمبحوثين لأجل استقراء معيشهم ورؤيتهم للعالم، مرورا بفهم سيرورة تشكل مساراتهم البيوغرافية، ووصولا إلى الكشف عن تضاريس العالم الاجتماعي الذي يحيون داخله(Ferraroti, 2013) .

يعرف دانييل بيرتو حكايا الحياة كشكل خاص من المقابلة- يسميه بالمقابلة السردية l'entretien narratif- يطلب من خلالها الباحث من شخص معين يسمى بالمبحوث، أن يحكي جزءا من تجربته المعيشة أو وضعيات مبنينة لواقعه الاجتماعي المعيش(Berteau, 2005) . يفرض هذا التحديد ثلاث مرتكزات منهجية: أولا، النظر إلى سيرة الحياة كإنتاج سردي production discursive يقوم به المبحوث من خلال عملية بناء المعنى حول وجوده الاجتماعي وإضفاء الدلالة حول الأحداث والوقائع التي تؤثث بيئته الاجتماعية. ثانيا، تصور سيرة الحياة كتجربة معيشة تُمكن من فهم مسارات الحياة les trajectoires de vie، ومن تحليل تتابع الوقائع والأحداث والكيفية التي تؤثر بها هذه الوقائع على منطقيات الفعل لدى الفرد وعلى استراتيجياته الهوياتية. ثالثا، النظر إلى سيرة الحياة كبناء ذاتي للواقع، ينطلق منه الباحث لأجل تحديد نواة مشتركة للتجربة. بمعنى أن سيرة الحياة هي منهج بيوغرافي في البحث، يمكن من فهم الكيفية التي عاش بها الفرد تجربة معينة (تجربة البطالة، تجربة الجنوح، تجربة الزواج ...).

لذلك، فسيرا على الخطى المنهجية لدلتاي (Dilthey, 1942) ، نتبنا منهج التعاطف، من خلال المعايشة الفكرية للوضعيات ذات الدلالة بالنسبة للمراهق الجانح، المرتبطة بسيرورة بنائه الهوياتي، بهدف تمكينه من إعادة إنتاج تجربته الاجتماعية وإبراز ابعادها واستراتيجياتها، استنادا إلى نظرة فينومينولوجية-هرمينوطيقية داخلية تدفع بالمراهق للكشف عن الدوافع العميقة لارتمائه في الأنشطة الجانحة، وفض النقاب عن رؤيته للعالم. حيث سنعمل في إطار بيننذاتي، عبر المقاربة البيوغرافية، على الاقتراب من بنيته المفاهيمية المؤطرة لحياته اليومية واستبصار شيمات مخزونه المعرفي، لأجل فهم اللحظات البيوغرافية الفارقة في مساره الجانح. ذلك إن الفهم عند ماكس فيبر يحقق هدفين اثنين: فهو من ناحية يمكننا من معرفة العوامل والأسباب التي تؤدي إلى حدوث الظاهرة الاجتماعية، وذلك من خلال صياغة فئات سوسيولوجية عامة، وهو من ناحية أخرى يمكننا من إدراك المعاني الذاتية التي تنطوي عليها الأفعال الإنسانية (Weber, 1965) .

فيما يتعلق بعينة البحث وخصائصها، قمنا بتشكيل عينة بحثنا تأسيسا على تمايز الوضعيات ووجهات نظر الفاعلين. وبالإضافة إلى تمايز الوضعيات نتنبه إلى وضعية الاختلاف التي يتميز بها الأفراد، فمواجهتهم لنفس الوضعية لا تؤدي بهم إلى لعب أدوارهم وممارسة أنشطتهم بنفس الأسلوب، لأنهم لا يملكون نفس بنية الشخصية.

ولما كان مجتمع البحث يتمثل في نزلاء مركز حماية الطفولة، فقد لجأنا إلى منهجية قصدية في اختيار المبحوثين méthode d'échantillonnage par choix raisonné، مبتعدين عن المناهج الاحتمالية التي تسعى إلى تجاوز ذاتية الفاعل (Paillé & Mucchielli, 2012). ولأن هذا المنهج أكثر ملاءمة للاشتغال على عينة صغيرة. فانسجاما مع الروح الإبستيمولوجية للبحث، فرضت العينة القصدية نفسها على الموضوع، مادمنا نروم فهم تجربة الجنوح في جوانيتها، وقصديتها ورمزيتها.

خصائص أفراد العينة

اسم الحدث [1]	السن	الجنس	وسط الإقامة	مهنة الوالدين	عدد الإخوة	المستوى الدراسي	سبب الانقطاع	نوع الجنحة	نوع الإدمان	العلاقة بمؤسسة إعادة الإدماج
أنس	17	ذكر	حضري	- عامل - ربة بيت	2	ابتدائي	المشاكل العائلية التسلط الأبوي	السرقة المخدرات	الحشيش السجائر الكحول	عدم التكيف العنف مع الأقران

[1] لابد من الإشارة أنه حفاظا على سرية المعطيات البيوغرافية، واحتراما لأخلاقيات البحث، فإن الأسماء الواردة في النص أسماء مستعارة، تم اختيارها حتى لا يتم التعرف على هوية المبحوثين.

اسم الحدث 1	السن	الجنس	وسط الإقامة	مهنة الوالدين	عدد الإخوة	المستوى الدراسي	سبب الانقطاع	نوع الجنحة	نوع الإدمان	العلاقة بمؤسسة إعادة الإدماج
									حبوب الهلوسة	
نبيل	20	ذكر	صفيحي	مجهول ربة بيت	بدون	ثانوي	الفقر مرض الأم	الضرب والجرح بيع المخدرات	الحشيش الكحول الشيشة حبوب الهلوسة	ظاهرة العود
معاذ	15	ذكر	حضري	متقاعد ربة بيت	5	الإعدادي	التسلط الأبوي	الشذوذ الجنسي	الحشيش الكحول الأنترنت حبوب الهلوسة	إعادة إنتاج الوصم داخل المؤسسة
رضى	15	ذكر	شبه حضري	فلاح وحارس ليلي ربة بيت	2	الإعدادي	التسلط الأبوي جماعة الأقران	السرقة الضرب والجرح تكوين عصابة	الحشيش حبوب الهلوسة	الفرار المتكرر
وليد	18	ذكر	شبه حضري	سائق سيارة أجرة ربة بيت	1	الإعدادي	التفكك الأسري	السرقة	الحشيش حبوب الهلوسة	الفرار المتكرر

وقد تمحورت المقابلات البيوغرافية مع المبحوثين، حول مجموعة من المحاور الموضوعاتية المرتبطة بإشكالية البحث، وأهدافه، ورهاناته: تجربة الجنوح، التجربة المدرسية، العلاقات الأسرية، العلاقات داخل الحي ومع جماعة الأقران، وضعيات الإقصاء والتهميش، الاستراتيجيات الموظفة في مواجهة هذه الوضعيات... وعموما، تتقاطع موضوعات ومحاور المقابلات البيوغرافية مع ثلاثة أسئلة مؤطرة للبحث، نلجأ إليها باستمرار لأجل مساعدة المبحوثين على التفكير في مساراتهم البيوغرافية، والحكي عن تجاربهم المعيشة: "كيف أصبحت ما أنت عليه اليوم؟ وكيف أثَّرتْ الأسرة والمدرسة في معيشك؟ وماهي الاستراتيجيات التي قُمتَ بنهجها لأجل تدبير علاقتك بذاتك وبالغير؟"

كما استند تحليلنا لحكايا المبحوثين على منهجية التحليل الفهمي. ويعتبر دانييل بيرتو أن هذا النوع من التحليل يهدف إلى توضيح المعلومات والدلالات الهامة لمضمون المقابلة. ويحتاج ذلك إلى قراءات متعددة لاستكشاف مضامين دلالية جديدة. ومن تم تقتضي هذه المنهجية، كما تحضر عند دلتاي وكادامير، تأويل دلالات الخطاب السردي للسيرة الحياتية بإعطاء أولوية لتحليل اللغة (Gadamer, 1996) . في هذا السياق، يرى برتو أن معاني النص تتموقع في تقاطع

بين أفق السارد وأفق المحلل، وأنه كلما كانت الثقافة السوسيوبيوغرافية غنية كلما اتسع أفق المحلل وأمكنه تحليل آثار السيرورات الاجتماعية. هكذا يتطلب التحليل الفهمي التوليف بين الصرامة المنهجية والخيال، لكن هنا تكمن الأولوية للخيال، إذ يتعلق الأمر بأن يبني المحلل تمثلا عقليا استدلاليا للعلاقات والسيرورات التي اتبعت الظواهر المدروسة، بالعودة غالبا للشهادات، فإعمال الخيال السوسيولوجي هو الذي يساعد المحلل على حشد موارده التأويلية عبر تنشيط بنيات نشاطه المعرفي (Bertaux, 2005) .

لذلك يرى برتو أن إعادة بناء البنية الدياكرونية للسيرة الحياتية ليست مجرد عملية تقنية، بل إنها تهدف إلى إعداد المحلل للبحث عن مسارات السببية الثقافية والسيرورات المترابطة الموجودة في الحكايا، فهي بمثابة تدريب على إعادة موضعة مسارات الحياة في سياقاتها السوسيوتاريخية؛ وهذا ما يفرض على الباحث التنبه إلى الاقتصاد الأخلاقي للمجتمع حتى يستطيع إنجاز تقاطع بين ماهو فردي وسوسيوتاريخي، بين الأبتوس والحقل، بين الفعل والبنيات.

ثالثا: تجربة الجنوح لدى المراهق، من اللامرئية الاجتماعية إلى النزاع لأجل الاعتراف

إن التأمل في التجارب البيوغرافية للمبحوثين تكشف أن المراهق الجانح في المجتمع المغربي يعاني من اللامرئية الاجتماعية. حيث أن وضعية الإنكار الاجتماعي التي عاشها في المجال الأسري والمدرسي، وغياب انخراطه في أي نشاط اجتماعي آخر في المجال العمومي خلق لديه صعوبات كبيرة في تدبير انتقاله الهوياتي في طور المراهقة. ويمكن اعتبار لحظة انقذاف المراهق الجانح في الشارع، حدثا بيوغرافيا فارقا في سيرورته الهوياتية. إذ ساهم الشارع في تغيير تمثلاته لبعدي الزمان والمكان ولأسلوب تدبير علاقته بذاته، ولعلاقته الاجتماعية بالغير، عبر توليد استراتيجيات هوياتية جديدة تخرجه من دوائر الإنكار الاجتماعي إلى دوائر المرئية الاجتماعية.

أ. المجال الأسري كحقل للعنف والإنكار الاجتماعي

ارتبط المجال الأسري لدى المبحوثين بالقهر والاضطهاد الأبوي بشكل يومي. فالبيت لم يكن فضاء للبينذاتية وتقاسم العيش، وإنما فضاء لإنتاج أشكال متعددة من العنف المادي والرمزي. لقد كان المجال الأسري في المسار البيوغرافي للمبحوثين حقلا للمراقبة والمعاقبة والتنكيل بالجسد، وليس حقلا للرعاية والتنشئة الأسرية السوية. مما رسخ لديهم إحساسا دائما بالخوف والسلبية واللامبالاة إزاءه. لذلك كان الانتقال الهوياتي إلى طور المراهقة لحظة للتمرد على عنف

ذلك المجال، باختيار الشارع كفضاء هامشي لإعادة بناء الهوية، وفق استبطانات جديدة مع ذوات أخرى أكثر دلالة، تمنح المراهق معنى جديدا لوجوده الاجتماعي وعلاقته بالعالم.

"أنا دابا ما كنهضرش مع بابا... ما بقاش كيحملني... حتى أنا مبقيتش كنحملو... بمجرد دخولي للمراهقة تغيرت النظرة ديالو ليّ... ولّى كيفضل عليّ خوتي... كيبقى يعيط فلان آجي هاك لفلوس... فلان آجي واش خاصّك شي حاجة... ما تيعيطش ليّ أنا ابحال إلى ما كاينش أنا في الدار... افهمتيني...". معاد.

إن وضعية الإنكار الاجتماعي التي أصبح يعيشها معاد في مجاله الأسري نتيجة المقارنة الاجتماعية التي وضعه فيها الأب جعلت صورته لذاته تهتز، فتهدمت جاذبيته نحو البيت، ليلقي بذاته في الشارع كمجال جديد للعيش. لقد تعاظمت الانفعالات السلبية لمعاد نحو مجاله الأسري، وبخاصة نحو أبيه الذي لم يعد ينادي عليه ولا يذكر اسمه في الحياة اليومية للأسرة، ويسلط عليه نظرته التحقيرية. لقد نعته ذات يوم بالزامل في سياق سؤال الأم عن أبنائها لحظة عودتها من التسوق، إذ أجابها بدم بارد :*"الدراري الصغار مشاو للمدرسة... الدرّي لكبير راه مشغول... داك الزامل راه عاد فاق... ولدك ما عجبنيش... انت اللي ضصرتيه... ذاك الحمار... ذاك الزامل ديما راجع للدّار معطل... راه تبدل ولى باسل..."*.

هكذا شكل المجال الأسري عنفا حقيقيا نحو معاد وصار يعاقب من حين لآخر من طرف الأب، يحبسه لساعات طوال في المرحاض كلما حاول الاحتجاج على وضعية اللامساواة التي يعيشها أو التعبير عن مواقفه وآرائه.

وكان البيت بالنسبة لسفيان مجالا لجراحات نفسية واجتماعية عميقة نتيجة وضعية الانحراف المزمنة للأب وسلوكه العدواني اليومي نحو الأم.*" كنت كانشوف أبي كايضرب أمي قدام عيني، كنا ماكنعسوش، كيجي سكران كيضربها، كان هرسها من يديها، ضربها بزرواطة وتشد في الحبس، راه عندو 3 ديال الشدات بسبب العنف ضد الأصول، كيجي سكران كايضربها قدامنا..."* سفيان.

لقد دفع عنف المجال الأسري بسفيان إلى أن يلعب بشكل قهري الدور الاجتماعي للأب، نتيجة استبطانه لدور الآخر ذي الدلالة بشكل قسري. وصارت هويته الاجتماعية انعكاسا مرآويا للذات الأبوية اللاسوية، مما ولد تناظرا وظيفيا بين عالم الحياة لدى أبيه وعالمه الشخصي، فكان

انسحابه من المجال الأسري وجنوحه في الشارع جوابا موضوعيا عن أزمته العلائقية، وعنف مجاله الأسري.

أما بالنسبة لنبيل فقد كانت هشاشة مجاله الأسري، على المستوى الإيكولوجي والنفسي والاجتماعي، أساس تصدع صورته لذاته وللغير وللعالم. وشكل اكتشافه أنه متخلى عنه مفترقا بيوغرافيا صعبا. فقد اهتزت معه صورة الآخر ذي الدلالة لديه، وصورة الأم تحديدا حين اكتشف أنها آثرت أن تخفي عليه حقيقة نسبه. وهو ما أسقطه في صيرورة من الهدر الوجودي اتسمت بالعدوان نحو الذات ونحو الغير، ليصبح الشارع مجالا موازيا لإعادة تشكيل هوية تمنحه الاعتراف الاجتماعي. فأصبح الصراع مع الغير عبر العنف والعدوان الوسيلة الوحيدة التي تمنحه المرئية الاجتماعية والانتماء. فتغيرت حينها لغته الاجتماعية وإيماءاته الرمزية بغاية تغيير نظام الأشياء وقواعد اللعب في عالمه الاجتماعي.

وعموما، يتبين أن المجال الأسري كان حقلا للعنف والإقصاء أكثر منه بنية حاضنة لانتظارات المراهق وتوتراته. فلم يسمح بتفاعل إيجابي بين السيرورة الهوياتية للمراهق ومحيطه. مما ولد لديه اضطرابا في نسق العلاقة الاجتماعية بالآخر ذي الدلالة وما ترتب عنه من عدم إحساسه بالطمأنينة والأمان.

ب. المجال المدرسي كحقل للاغتراب الوجودي والتشيؤ

لم يكن المجال المدرسي بعيدا عن هدر الكيان الذاتي للمبحوثين، فتجربتهم الدراسية ارتبطت بقطائع بيوغرافية على مستوى الهوية المدرسية، تمظهرت في المعاناة والإهانة، كانعكاس مباشر لسلبية العلاقة بالمدرس وبالمعارف. ولم يستطيعوا تحقيق استبطان إيجابي للقيم والمعايير والاتجاهات اللازمة للعب دور التلميذ، واحتلال مكانة جيدة في المجال المدرسي بين الآخرين.

لقد كان المجال المدرسي فضاء قهريا بالنسبة للمبحوثين، وأنتج أزمات بيوغرافية فارقة في بنائهم الهوياتي. مما جعلهم يسقطون في الاغتراب الوجودي والتشيؤ، والإحساس المستمر بالعجز عن المشاركة والمبادرة والفعل في دينامية الفصل. " *فاش كنمشي للمدرسة، بنادم كايقرى وأنا ناعس، الأستاذة ولات عارفة المشاكل ديالنا، مبقاتش كاتدوي معايا، حيت فاش كاتنوضني للسبورة ماتنعرف نقرا والو، مابقيتش كانفكر في القراية، وليت كانفكر غير في أمي، كنفكر في العصا، سهير الليل..." سفيان.*

لم يكن سفيان ذاتا فاعلة في المجال المدرسي، فكان خارج الهوية المدرسية المرغوبة وبعيدا عن الانتظارات المؤسساتية المرسومة. لقد كان خاضعا إلى القهرية الإقصائية لنسقها المادي والرمزي. وأمام شعوره الدائم بالدونية وفقدان وجوده المدرسي للمعنى، تحول إلى مجرد شيئ بين أشياء الفصل، تتركه المعلمة ينام حينما يغالبه النعاس، وتجلسه في المقعد الأخير من الفصل حتى لا يعكر صفو الحصة.

ولم ينس وليد دخوله المدرسي للمستوى الثاني من تعليمه الابتدائي، حينما طلبت منهم المعلمة نقل اللوازم المدرسية من على السبورة، فظل مستمرا في مكانه عاجزا عن فك ما يراه من ألغاز." *حسيت براسي حتى شي حاجة أنا، بحال شي حمار حاشاك*". كما لا يزال يستحضر الضرب المستمر الذي تلقاه على يديه ومؤخرته، لعدم قدرته على استظهار جدول الضرب، وظلت صورة جدته التي ترسل البيض لمعلمته، لتزويده بنقط تسمح له بالنجاح عالقة بذهنه.

لقد كان الانكفاء على الذات هو رد الفعل المشترك لهؤلاء الجانحين لما فشلوا في مجابهة إشراطات النسق المدرسي وخوض غمار المنافسة فيه، إحساسا منهم بالعجز المزمن وغياب الاستراتيجيات اللازمة للعب دور التلميذ. فكان العالم الصوري المعيش هو المدرسة، ولكن العالم الذاتي الحقيقي كان عالما آخر، يبحث فيه هؤلاء عن رؤية جديدة للذات وللغير وللعالم، أمام انسداد الأفق واحتجاب الرؤية. تأخذ الهوية، هاهنا، طابعا قهريا، لا يدرك فيه المراهق طبيعة مصيره ومستقبله، ليكون الحل هو ابتعاده عن المجال المدرسي الذي يهدد وحدة الذات ويسقطها في تنافر معرفي حاد. مما يولد لدى المراهق مشاعر الخوف والعدوانية نحو الغير.

"*كنت ديما مخاصم معا أستاذ الرياضيات، كنت كنكرهو، كان عنيف، غير كايسب الحصة كاملة، ديما فيه ريحة الشراب، ماكناش كنفهمو أش كايقول، فمه طايح، غير تيبركم... وليت كانغيب بزاف كنطلب المكلف يضرب علي. في السابعة ضربت الأستاذة ديال الفرنسية بالمحفظة على راسها، عندها الزهر، كون شي واحد آخر آش غادي ندير ليه، نقتلو... أنا ماتنبغيش لي يتحكم فيا، واحد الأستاذ ضربت ليه ولدو من تماك مابقاش كايضربني. فالمستوى الخامس، تقبت لواحد التلميذ الأنف ديالو...*" عادل.

لقد أخذت صورة الآخر ذي الدلالة في المجال المدرسي طابع العنف والصراع، وأسقطت هؤلاء المراهقين في توتر هوياتي بالغ. فكان ذلك المجال بؤرة لتفجر أشكال متعددة من العنف المادي والرمزي، تمظهر في تبادل الإهانات والتحقير بين التلميذ والمدرس عبر السب والشتم

والضرب. فصارت العدوانية هي أساس التفاعل الاجتماعي، وأضحت صورة المدرس كمرجع هوياتي لذات التلميذ نموذجا أوليا للعلاقة الاضطهادية وليس للغيرية وللتعاطف الوجداني.

ب. الشارع كفضاء للخروج من المأزق العلائقي

أمام فشل المجال الأسري والمدرسي في بناء الاقتدار المعرفي والاجتماعي كأساس للهوية الإيجابية، وأمام إحساس المبحوثين بالانشطار الذاتي، يصير الشارع مجالا بديلا للبناء الهوياتي (Mohammed, 2011)، ويصير التسكع اختيارا استراتيجيا لإعادة تدبير المراهق لعلاقته بمفهومي الزمان والمكان. فالعودة إلى النص البيوغرافي للمبحوثين تبرز أن هؤلاء الجانحون تتملكهم الرغبة في الخروج من حقل الإنكار الاجتماعي إلى حقل المرئية الاجتماعية، ونزوعا حادا نحو الاعتراف بكيانهم الذاتي والمعنوي. وهذا ما يتقاطع مع مجموعة من البحوث السوسيولوجية حول التحولات الاجتماعية بالمجتمعات المغاربية (المليتي، 2020؛ الهرماسي، 2020؛ القدري، 2010) وبالمجتمع المغربي على وجه التحديد(سبيلا، 2007). حيث أن سيرورة التحديث التي أضحت تعرفها هذه المجتمعات، وما رافقها من توسع لهوامش الفردانية الاجتماعية، كشفت نزوعا واضحا لدى الشباب المغاربي نحو الاستقلالية ورغبة جامحة في تحقيق النجاح الفردي. وهو ما تعكسه على وجه الخصوص أنشطتهم الاجتماعية المتمثلة في تجريب الخطر وفي إنتاج أنماط حياة جديدة وتعبيرات ثقافية بديلة، يقومون عبرها بمساءلة مرجعيات القيم والمعايير التقليدية، وتجسيد مطالب عديدة متصلة بالإنصاف والمساواة ، والمواطنة والحرية. تكشف الأنشطة الانحرافية للمبحوثين وانغراسهم اليومي في الشارع، عن بحثهم الشديد عن الاعتراف بالذات والكيان، ورغبتهم القوية في فردنة تشكيلهم الهوياتي، عبر السعي إلى إثبات الهوية والتفرد على الآخرين. وعليه، فإن الأنشطة الانحرافية للمراهقين الجانحين ليست مجانية، كما أن اختيارهم لوسط المدينة كفضاء للعيش ليس اعتباطيا، إنها ممارسات تعبر عن الرغبة في التفرد، حيث يتم استعمال الجسد وإيماءاته في إعادة بناء الواقع الاجتماعي وفق تمثل جديد للزمان والمكان. وبالتالي يمكن اعتبار تجربة الجنوح في المجتمع المغربي، مرتبطة بهيمنة التمرد واللامعيارية على مفهوم الذات، حيث تُبرز حكايا المبحوثين تمردهم الدائم على السلطة البيداغوجية للمدرس والسلطة الوالدية، بغاية بناء ذات أصيلة تثبت رغباتها وحاجاتها رغم لاشرعيتها من وجهة نظر المجتمع.

لقد صار وسط المدينة بالنسبة لهؤلاء نقطة جذب قوية، وخصوصا بالنسبة لمعاد ونبيل كنموذج مثال للهوية السلبية، وكموضوع للإنكار الاجتماعي البالغ. فالأول يعيش حالة اغتراب مزمن ويحس بالاضطهاد لعدم اعتراف المجتمع بهويته المثلية، ويحس بغياب البنيات الحاضنة

لتفتح ذاته ونمائها. لذلك يحضر وسط المدينة عنده كحقل اجتماعي لاستعراض الذات. لقد صار الشارع المجال الحيوي لمعاد لبناء استراتيجياته الهوياتية وفق منظور جديد للذات يخرجه من وضعية التنافر المعرفي التي لازمته على مستوى إدراكه لذاته طيلة انتقاله الهوياتي.

"*عرفوني على أحسن حلاق خاص بLes gays في القنيطرة وحلاق بأكدال، وعرفوني على شارع ديال les gays بالرباط هو شارع النصر، ومقهى باليما ومقهى هاواي. وليت كنهضر بحالهم بحال البنات لي كيهضروا بالمعاني*".

" *جراهيم" : هي اترجل تنكولوها إلى كانوا جايين البوليس*

" *الملالي" : هي الشفرة، تنكولو مثلا مشيت مع واحد خينا ودرت ليه الملالي*

" *تمرماطي" : هي زعما اتبنت، تيكولوا راه مشيت مع واحد الضحية وتهلا فيّ، راه هو ضحية وتيكول ليك الآخر ضحية.. أويلي.. أوداك التخريبق*".

"*كالوا ليّ نعطيوك عامين غادي تولي top ديال les gays في القنيطرة... عرفوني على simo هو top ديالنا في القنيطرة... هو الواعر في le gays... عزيز عليّ أنا... كيغيرو منّو لبنات... في Bib café كيديوه وكيخليو لبنات...*".

والثاني نبيل، يعيش حالة من الفراغ الوجودي نتيجة بحثه المضني عن والده البيولوجي، فهو يعيش هوية مفقودة، وبالتالي صراعا حادا ودائما مع السؤال الوجودي : من أنا ؟ لذلك صار التسكع في وسط المدينة عالم الحياة الحقيقي بالنسبة إليه، وحقلا اجتماعيا للدخول في حوار مع الغير، حتى وإن كان حوارا عنيفا إن على المستوى المادي أو الرمزي: " *قبطوني الجوندارم في centre ville مقرقب ولايح حوايجي*".

ولقد كان التسكع الدائم لعادل في شاطئ الهرهورة أو وسط المدينة أو في المحيط المدرسي رفقة كلبه PitBull وقيامه بالسرقة مع الضرب والجرح وسط الطريق الرئيسية بين تمارة والرباط، رغبة في الخروج من الغياب إلى الحضور. فهو لا يعتبر جنوحه وسيلة لجلب المال، وإنما أسلوبا في الاحتفاء بالذات من خلال الاعتداء على الغير، إثباتا للوجود: " *هوما تايحسبوني شفار، بحال إلى أنا محروم من الفلوس أو الماكلة، يعاودو لأمهم، السرقة أنا عندي غير هواية، فاش كنهبط للمدينة نشفر ولا ندير شي حاجة كنحس براسي كاين*". عادل.

إن استقراء حكايا المبحوثين يفيد أن المراهق الجانح يعيد تنظيم علاقاته الاجتماعية عبر فعل التسكع، ليجعل من جماعة أقرانه المرجع الهوياتي الأساس الذي يمنح معنى لكينونته،

باعتبار تلك الجماعة حقلا لتأويل العالم، وفق شبكات قرائية جديدة، واستنادا لشفرات اجتماعية ورموز خاصة (Le Breton, 2008). إن جماعة الأقران كوسيط للتسكع في الشارع تصير مأوى وجوديا لأشخاص يعانون، يطمحون لتشكيل روابط اجتماعية جديدة تعوضهم عن عالم الإنكار والحرمان(Duvanel Aouida, 2016) .

"تنكميو الشيشة في واد سبو، تنمشيو نقصروا في الرباط... في المهدية... تنكبتوها في التران، كنغنيو هيفاء وهبي أو كنغوتوا... ما تيحملوناش شي وحدين... أو كنبقاو نتساراو في الطوموبيل ديال شي فكتيم ديال شي واحد منا... اعرفتي آش دوزت في ذاك الشهر... العجب!! تلاقيت مع بزاف ديال les gays...".

إن تجربة التسكع في الشارع لدى المراهق الجانح، هاهنا، تأخذ معنى المغامرة والبحث عن الحرية واكتشاف العالم، خروج من حتمية البنيات إلى إرادة الذات وإبراز جهدها، بحث عن التملك والامتلاك، محاولة للخروج من عالم القهر والإذلال. فالذات المهدورة في المجالين الأسري والمدرسي تشكل استراتيجياتها الخاصة في الفعل والحركة، بحثا عن انتماء ما مفقود (Mohammed, 2011). ومن تم اختيار المراهق الجانح للهامش كمجال تفاوضي مع الأنساق المحيطة به.

"فاش كنسرق كنحس براسي بطل، واعر، كنحس براسي كننتاقم لشي حاجة، فاش كنسرق عاد كنبرد شوية، عاد كانرتاح، وليت كانلبس مزيان، مهلي فراسي، ولات عندي صحيبتي، فاش كنجي للدرب لي بغا يتكيف كنكيفو، كانتعامل، كاندير المزيان مع صحابي، وليت داير بلاصتي فالدرب، فهمتيني..." وليد.

لقد كانت جماعة الأقران في السيرة الذاتية للمبحوثين حقلا استراتيجيا لإعادة بناء زمانية جديدة من خلال طقوس احتفالية يومية. فتعلم تقنيات تدخين السجائر، وصناعة لفائف الحشيش واكتساب مهارات السرقة، وتدبير العلاقة بالضحية ورجال الأمن، بمثابة طقوس تلقينية إدماجية في جماعة الجانحين كجماعة جديدة، يكتسب عبرها معنى جديدا لتشكيله الهوياتي، معنى مقترنا بالمغامرة والقوة والشجاعة، ويخرج فيها من رتابة الزمن الأسري والزمن المدرسي اللذان يتسمان بالقهر ونسيان الجسد وتأجيل إشباع الرغبة.

" كنا كانسرقوا الحوايج، الطواجن، أي حاجة كنعاودو فيها البيع، كانجمعوا الحوايج وكانديرو الفراشة، دازت فترة الموسم بخير، الطاسة والقرطاسة، واكل، شارب، حاوي، فوق السلك، ناسي العالم، ماكنعقل على حتى واحد، حتى أمي نسيتها" نبيل.

زمن الجنوح هنا إذن زمن مقدس، هو زمن السعادة اللحظية والانتشاء الفوري، واقتناص الفرص الآنية حتى لا تضيع. إنه زمن الاستهلاك من أجل الاستهلاك. فنشاط السرقة بالنسبة لعادل هو مجال تتفتق فيه شخصيته وتنمو ملكاته. *" أنا ماكنسرقش باش ناكل أو شي حاجة، الشفرة أنا عندي غير هواية، بنادم لي كايمشي يتريني في لاصال، بحال هكذاك أنا، إلى ماسرقتش شي سيمانة، تنحس بشي حاجة خاصاني، السرقة عندي غير هواية، بحال إلى قلت الكرة. عندي فن، ضروري خصني ندي شي حاجة في السيمانة، إلى ماديت والو كانحس براسي مافديش، عيان، ضروري خصني ندي شي حاجة، ندير شي مغامرة، نخرج من الملل" عادل.*

إن الأنشطة الانحرافية لهؤلاء الجانحين لم تكن بقصد السرقة أو الضرب والجرح، وإنما كانت بمثابة استراتيجيات هوياتية لإعادة بناء الواقع الاجتماعي، بما يتيحه لهم من إمكانات للإحساس بالحياة والإثارة والحركة (Cusson, 2010). فالمبحوثون جميعهم كانوا يجدون طيلة مسارهم البيوغرافي صعوبات كبيرة في الهدوء، ويفضلون التسكع في الشارع بدل المكوث في البيت أو الانخراط في الأنشطة المدرسية. الجنوح إذن هو مجموعة من الطقوس التلقينية ينهجها المراهق الجانح، والتي تمنحه إحساسا بالوجود، وشعورا تعويضيا بالهوية. الجنوح ممارسة تعويضية حاملة لدلالات وجودية واستراتيجية. إنها هامش الفعل المتاح لدى المراهق الجانح، لأجل مجاوزة وضعيات القهر والتشيؤ والاغتراب. إنها بمثابة نداء ومطالبة بالاعتراف، ورغبة في المشاركة المواطنة والنشطة في الحياة العامة.

إن التحولات البنيوية الجارفة للمجتمع المغربي المعاصر، جعلت من أسئلة الهوية، والاعتراف، والهدر الوجودي، والظلم، والإقصاء، والأزمات البيوغرافية، أولويات الحياة الاجتماعية للأفراد. فالعودة إلى الدراسات المنجزة حول التغير الاجتماعي بالمغرب (Rachik, 2004; CERED, 2005; Dialmy, 2017) تدفع إلى إثارة ثلاثة تحولات رئيسة :أولا، نزوع الفرد نحو الاستقلالية والحرية على المستوى الاجتماعي، وهذا ما يتجسد في اختيار نمط حياة متفرد، والاختيار الفردي للعمل ولشريك الحياة. ثانيا: إن التحولات السوسيو حضرية، والسياق السوسيواقتصادي المعولم الذي تنبثق فيه، أنتج تفككا ملحوظا للقيم التقليدية المؤسسة على التضامن الجماعي، وأدى إلى تسريع سيرورة فردنة مسارات الحياة. ثالثا، تشهد العلاقات الجنسية

خارج إطار الزواج والاستعمال المتزايد لموانع الحمل، على تحولات جارفة في علاقة الأفراد بذواتهم، من حيث توظيفهم لاستراتيجيات هوياتية للتذيث. إننا أمام تحولات عميقة في مرجعيات النظام المعياري والأخلاقي بالمغرب، حيث قذفت هذه التحولات بالمراهق إلى اجتراح أشكال هوياتية جديدة في التفاوض حول القيم، والمطالبة بحقوق " ذاتية" متمثلة في الاستقلالية والحرية والاعتراف. وهذا ما يتضح بجلاء من خلال دراستنا الفهمية التأويلية لتجربة الجنوح لدى المراهق بالمغرب. إذ أن الاستقراء الفينومينولوجي لحكايا المبحوثين، يفيد أننا أمام نمط جديد من التذيث في مغامرة البحث عن المرئية الاجتماعية. وحيث أن هذا النمط الهوياتي يوقظ لدى المراهق الجانح فردانيته الاجتماعية، فإنه يؤسس لديه آليات سردية، تجعل من ذاته موضوعا للتأمل في ماضيه، وحاضره، وفي علاقته بالمستقبل، داخل حلقة دائرية يواجه فيها الغير، ويبلور فيها رؤية جديدة للعالم. فلا مندوحة من القول أن تجربة الجنوح تنعش أساسا همَّ انبثاق الذات le souci de soi لدى المراهق الجانح.

فإذا كانت التحولات البنيوية للمجتمع المغربي تجسد رغبة المراهقين الجانحين في التحرر من قهرية البنيات الاقتصادية، والاجتماعية، والنفسية، والثقافية، فإن هذه التحولات ساهمت في انبثاق ذاتية انعكاسية subjectivité réflexive لدى هؤلاء تتمظهر أساسا في النزوع نحو الفردنة، ومساءلة المجال العمومي وأشكال التوزيع المتكافئ للمرئية الاجتماعية. وعليه، فإن تجربة الجنوح لدى المراهق، تتخذ هاهنا أبعادا خاصة. ذلك أن انهيار المؤسسة المدرسية ودفعها بالتلاميذ إلى الفشل، يطرح سؤال الهوية وعلاقته بتكافؤ الفرص. واستعراض الجسد في الشارع عبر " التشرميل" يطرح سؤال الهوية وعلاقته بالاعتراف. كما أن فك الارتباط العاطفي مع الأسرة يطرح سؤال الهوية في علاقته بالغيرية كرهان مركزي للتواصل البينذاتي والاجتماعي، من حيث إن ضبط هذا الرهان والتحكم فيه بمثابة عوامل استراتيجية لدى المراهق في سيرورة التفاعل الاجتماعي والاعتراف بذاته ككيان. إن الانغراس في جماعة الأقران كبنية استقبال ملائمة للمرئية الاجتماعية، يكشف عن نزوع المراهق الجانح نحو البحث عن أشكال جديدة من التضامن والتعلق. حيث أن الشارع مجال للتيه والتسكع وتجريب الخطر، وفضاء ملائم لإعادة بناء الهوية. يوفر الشارع إذن شروط إمكان تحقيق الرغبة، ويخلق فرصا لإعادة البناء الاجتماعي للواقع بما يستجيب لذاتية المراهق الجانح. إن المراهق الجانح، من خلال مسرحة هويته في الفضاء العمومي، يجسد رغبة في الظهور والاعتراف بكيانه كفاعل اجتماعي يبلور استراتيجياته الهوياتية ومورادة التفكرية الانعكاسية في تدبير صراعه من أجل الاعتراف.

خاتمة

في المحصلة، يمكن التأكيد على أن المراهق الجانح في المجتمع المغربي يعاني من اللامرئية الاجتماعية. ومن تم يمكن فهم تصرفاته الانحرافية كخطاب موجه للغير لأجل نزع الاعتراف. وتعتبر السرقة والتسكع في المجال العمومي مؤشرا على الرغبة في الدخول في حوار مع الغير، وإثبات الذات من خلال العنف والعدوان. فقد ينظر البعض إلى السرقة والعدوان في الشارع كأفعال إجرامية، ولكن التأويل الذاتي لها من لدن الجانح يحولها إلى استراتيجيات هوياتية للتذيث والخروج من تجربة القهر والإذلال إلى الاعتراف الاجتماعي. لذلك، فإن اختيار دراسة الجنوح انطلاقا من مفهوم التجربة الاجتماعية، واستنادا إلى البراديغم الفهمي التأويلي وإلى المنهج البيوغرافي لحكايا الحياة، يشكل أهمية إبستيمية كبرى، وبخاصة في إطار دينامية التحولات البنيوية الجارفة للمجتمع المغربي المعاصر، وبما يتيح شروط إمكان النفاذ إلى عالم المراهق الجانح وفهم تشكيله الهوياتي. فأمام أفول المحكيات الكبرى للحداثة التي وعدت الإنسان بالعقلانية والحرية والتقدم، وأمام اتساع دائرة اللايقين (Ehrenberg, 1995) وسقوط العديد من الأشخاص في نزعة شكية جذرية أو عدمية، وأمام انسداد الأفق لدى الفئات المهدورة وتصدع الجماعات الأولية، وتراجع أدوارها في التربية الأخلاقية والحماية والضبط الاجتماعي، وأمام تنامي هشاشة الروابط الاجتماعية، وتوتر العلاقة بين الفرد والمجتمع، نكون بصدد تحول أنتربولوجي عميق يمس كل الفئات الاجتماعية، والمراهقين على وجه الخصوص، الذين يعيشون تجربة انتقالية، تلقي بنسبة كبيرة منهم في أزمة حادة للهوية واضطراب في الأدوار الاجتماعية.

وإذا كان هذا التحول البنيوي التاريخي يغير نظرة الفرد لذاته وللغير، ويخلق رؤى وصورا جديدة للعالم، ويشكل دلالات ورموزا جديدة بديلة، تنعكس في اللغة والجسد والوجدان، وتنغرس في الإيماءات والحركات، فإننا نرى بأن الأخذ بالمنهج الوضعي، دون التنبه إلى خصوصية الظاهرة المدروسة، واستحضار المأزق الوجودي للإنسان المعاصر والفئات المستغنى عنها تحديدا، سيبعدنا عن فهم وتفهم عالم الحياة اليومية، ويسقطنا في تحويل العالم الحقيقي لوجودنا الاجتماعي إلى مقولات رياضية مجردة، تضع حاجزا سميكا أمام دراسة قصدية الفعل الاجتماعي بوصفه فعلا ذاتيا حاملا للمعنى، والمقصود بالذاتية ههنا النفاذ إلى داخل الظاهرة الإنسانية. لذلك نرى أن الأطروحة الإبستيمولوجية لدلتاي(Dilthey, 1942) التي ميزت بين العلوم الطبيعية والعلوم العقلية لها من الوجاهة ما يدفع بنا نحو مسلك منهجي ملائم لدراسة تجربة الجنوح لدى المراهق. ففي العلوم الطبيعية نفسر الوقائع سببيا، بينما نفهم الظواهر ونؤولها في العلوم العقلية. ومادام

الأمر كذلك، فإن المنهج الوضعي يدرس الوقائع فقط ولا يساعدنا في أزماتنا الحياتية، ولا يطرح أسئلة مرتبطة بمعنى وجودنا في هذا العالم.

فليس غريبا أن يعود ثلة من علماء الاجتماع المعاصرين للمنهج الفينومينولوجي بغاية الفهم التأويلي للتجارب الاجتماعية، وأن تنبثق سوسيولوجيات جديدة تضع الفرد والعلاقة بالمعنى كمنطلق للتحليل، متنبهة إلى عدم كفاية البراديغم السوسيولوجي الكلياني لدراسة الوجود الاجتماعي للإنسان المعاصر ومآزقه وذاتيته. بحيث تشكلت السوسيولوجيا الوجودية مع مارسل بول دوبول (Bolle De Bal, 2013) ، وسوسيولوجيا الفرد مع فرونسوا دوسانغلي ودانيلو مارتشكيلي(Martuccelli, de Singly, 2018) ، وسوسيولوجيا الذات مع جوهان ميشيل) (Michel, 2012 كثورة حقيقية على انزلاق النزعة الوضعية نحو تشييئ الإنسان والزج به في الاغتراب، مؤكدة أن الإنسان ليس فقط موضوعا للبحث، بل أيضا ذاتا عارفة ومفكرة وفاعلة في السيرورة التاريخية؛ إذ يتعلق الأمر، هاهنا، بسوسيولوجية للتجربة الاجتماعية تتوجه نحو ذاتية الفاعلين. حيث " تتطلّب هذه السوسيولوجيا الفهمية رفضا مزدوجا لاستراتيجية الارتياب والسّذاجة، لصورة الفاعل الخاضع بشكل أعمى أو الفاعل الذي لا يقهر، وإنّ هذا الموقف يقوم على ضرورة منهجية أكثر منه على مسلّمة أنطولوجية مرتبطة بالشّرط الإنساني، لأنّ ذاتية الفاعلين والوعي الذي يمتلكونه حول ذواتهم وحول العالم، هي العدّة الأساسية التي يستند إليها سوسيولوجي الفعل الاجتماعي، وعلى هذا الأساس ينبغي اتباع المسلّمات الخاصّة بسوسيولوجيا فينومينولوجية" (Dubet, 1994, p. 98) .

لائحة المصادر والمراجع

المراجع باللغة العربية:

- الهرماسي، عبد اللطيف. (2020). مسار الفردنة في تونس بين الديناميات الاجتماعية ومشروع النخبة الحداثوية "عمران للعلوم الاجتماعية"،العدد 32، المجلد الثامن. الصفحات: 41-69.
- المليتي، عماد. (2020). التحولات الاجتماعية والحريات الفردية لدى الشباب في تونس: أي علاقة؟ " عمران للعلوم الاجتماعية"، العدد 32، المجلد الثامن. الصفحات: 27-39.
- القدري، روضة. (2020). بروز الفرد في تونس: الخصوصيات والإشكالات " عمران للعلوم الاجتماعية"، العدد 32، المجلد الثامن، الصفحات: 95-111.
- عرابي، عبد القادر (2007). المناهج الكيفية في العلوم الاجتماعية. دمشق، دار الفكر.
- سبيلا، محمد. (2010) في تحولات المجتمع المغربي. البيضاء: دار توبقال للنشر.

المراجع باللغة الفرنسية:

- AFFaya , N., & Guerraoui, D. (2006). Le Maroc des jeunes. Rabat: L'association de recherche en communication interculturelle.
- Becker, H. (1985). Outsiders : Etudes de sociologie de la déviance. Paris: Métailié.
- Belarbi, Youssef . (2008) .Maroc, insécurité et délinquance juvénile. Rabat: Yadip.
- Bertaux, D. (2005). Le Récit de vie. Paris: Armond Colin.
- Berger, P ; Luckmann,T .(2018) .La Construction sociale de la réalité. Paris: Armand Colin.
- Brunelle, N., & Cousineau, M. (2005) . Trajectoires de déviance juvénile : Les éclairages de la recherche qualitative. Québec: PUQ.
- Bolle De Bal, Marcel. (2013). Fragments pour une sociologie existentielle, tome 1 : « Théories et concepts ». Paris: L'Harmattan.

- Camilleri, C. (1998). Les stratégies identitaires. Paris: PUF.
- Carra, C. (2001). Délinquance juvénile et quartiers sensibles: Histoires de vie. Paris: L'Harmattan.
- CERED. (2005). L'adolescence en question : analyse des résultats de l'enquête sur les adolescents en milieu urbain . Rabat: Etudes démographiques.
- Cusson, M. (2010). La délinquance, une vie choisie, entre plaisir et crime. Montréal: Bibliothèque Québécoise.
- Dialmy, Abdssamad. (2017). Transition sexuelle. Entre genre et islamisme. Paris: L'Harmattan.
- Dilthey, W. (1942). Introduction à l'étude des sciences humaines. Paris : PUF.
- Dubet, F. (1994). La sociologie de l'expérience. Paris: Le Seuil.
- Duvane Aouida, G. (2016). Rester délinquant . Comprendre les parcours des jeunes récidivistes. Paris: Academia-L'Harmattan.
- Ehrenberg, A. (1995). L'individu incertain. Paris: Hachette.
- El khazraji, A. (2006). La signification du vol chez le jeune délinquant marocain. Rabat: El maaraif El jadida.
- Ferraroti, F. (2013). Histoire et histoires de vie : la métohde biographique dans les sciences sociales . Paris: Téraèdre.
- FMRD. (2011). Enquête sur la délinquance juvénile. Rabat: Fondation Mohamed 6 pour la réinsertion des détenus.
- Gadamer, H-G (1996). Vérité et méthode: Les grandes lignes d'une herméneutique philosophique. Paris: Seuil.

- Hamdaoui, I. (2013). Le crime dans la société marocaine. étude sociologique. Rabat: Dar Alkalam. Publié en arabe.
- Husserl, E .(1976) .La crise des sciences européennes et la phénoménologie transcendantale .Paris: Gallimard.
- Le Breton, D. (2007). En souffrance: Adolescence et entrée dans la vie. Paris: Métaillié.
- Le Breton, D. (2008). Cultures adolescentes: Entre turbulence et construction de soi. Paris: Autrement.
- Le Breton, D. (2012). L'interactionnisme symbolique. Paris: Presses Universitaires de France.
- Le Breton, D. (2013). Conduites à risque. Paris: Presses Universitaires de France.
- Malewska-Peyre, H. (1998). Le processus de dévalorisation de l'identité et les stratégies identitaires. Dans C. C, Stratégies identitaires (pp. 111-141). Paris: PUF.
- Martuccelli, D., de Singly, F. (2018). L'individu et ses sociologies. Paris: Armand Colin.
- Michel, J (2012). Sociologie du soi, essai d'herméneutique appliquée. Rennes: Presses universitaires de Rennes.
- Mohammed, M. (2011). La formation des bandes. Entre la famille, l'école et la rue. Paris: Presses Universitaires de France.
- Paillé, P., & Mucchielli, A. (2016). L'analyse qualitative en sciences humaines et sociales. Paris: Armand Colin.

- Rachik, R. (1998). Regards sociologiques sur la délinquance juvénile au Maroc. Rabat: ED.
- Ricoeur, P. (1985). Temps et Récit ; Le temps raconté . Paris: Le Seuil.
- Tellier, F. (2003). Alfred Schutz et le projet d'une sociologie phénoménologique. Paris: PUF.
- Weber, M .(1965) .Essai sur quelques catégories de la sociologie compréhensive (1913), Dans Essai sur la théorie de la science . Paris: Plon.